رسالة الأديب العربي في مكافحة الاستعمار الجديد

بقلم حسين مروّة

مدخل :

« الاستعمار الجديد » اصطلاح مستحدث نشأ في ظل الظروف التاريخية المعاصرة تعبيراً عن الظاهرة الجديدة التي اتخذتها الامبريالية العالمية بعامة ، والامبريالية الاميركية بخاصة ، في المرحلة الحاضرة من مراحل تطور الرأسمالية والاستعمار .

فـ « الاستعمار الجديد » ـ اذن ـ ليس شيئا آخر يختلف من حيث الجوهر عن الاستعمار القديم . فان كلا منهما ليس سوى ظاهرة لجوهر واحد ، ولكن احدى الظاهرتين تختلف عن الاخرى من حيث تعبيرها عن هذا الجوهر الواحد الذي هو الامبريالية نفسها .. نعني ان القوانين الاقتصادية التي تقوم في اساس الاستعمار القديم هي القوانين ذاتها التي تقوم في أساس الاستعمار الجديد . وهي القوانين التي تدفع الاحتكارات والكتل المالية الى السيطرة ونزعة التحكم الجماعي ، وتدفع حفنة من الامم الغنية او القوية الى استثمار اكبر عدد يمكن استثماره من الامم الصغيرة او الضعيفة .

هذه الخاصة الجوهرية التي تميزت بها الرأسمالية منذ نشوء مرحلتها الامبريالية ، لا تزال هي نفسها الخاصة الرأسمالية الجوهرية حتى الآن ، ولم يتغير منها سوى الظاهرة التي تعبر عنها ، او الشكل ، او الوجه الذي يبدو منها للبشرية في الظروف المعاصرة .

ان عالمنا يواجه ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بالخصوص ، مرحلة تفكك نظام الحكم الكولونيالي ونشوء الدول المستقلة النامية . وهي المرحلة التي ولدتها الحركة التاريخية المميزة لعصرنا : حركة الثورة الاشتراكية وثورات التحرر الوطني ، ومن صلبها حركة التحرر العربية .

في ظل هذه الحركة التاريخية الكبرى فقد الاستعمار القديم أي الظاهرة الكولونيالية للامبريالية مسوغات وجوده لدى الشعوب ، فلم يبق له من سبيل الى البقاء والاستمرار ، ولم يبق للامبريالية الا ان تلجأ الى وسيلة غير الحكم الاستعماري المباشر (الكولونياليزم) ـ وهو ما نسميه الاستعمار القديم ـ لكي تحتفظ لنفسها بالاساس الذي قامت عليه ، والا فقدت وجودها نفسه ايضا في حين انها لا تزال موجودة بالفعل ، بدليل ان الاحتكارات والزمر المالية لا تزال تمارس نزعتها الى التحكم والسيطرة عمليا ، وتجهد في الضغط لمتابعة استثمارها للبلدان النامية .

نقول : كان لا بد للامبريالية ، كي تحتفظ بجوهر كيانها ووجودها ـ ما دام ذلك ممكنا ان تبحث عن وسائل جديدة لنهبها خيرات الشعوب ولابقاء البلدان المتحررة رهن سيطرتها ، ولافراغ استقلالها السياسي من مضمونه الاقتصادي ، اي جعله استقلالا شكليا ليس غير .. فكان « الاستعمار الجديد » هو ذلك الذي يجمع هذه الوسائل الجديدة .. فهو من حيث الظاهر نوع من « المساعدة » تقدمها الدول الامبريالية الى الدول المتحررة هذه بشكل توظيفات رأسمالية ، ولكنه ـ من حيث الواقع ـ نوع من المحاولة للابقاء على مواقعها القديمة اولا ، ولايجاد مواقع جديدة ثانيا ..

ان واقع سير العلاقات الجارية حتى الان بين الدول الامبريالية والبلدان النامية ينبىء بأن الاساس الاقتصادي للاستثمار الامبريالي لا يزال قائما ، بدليل انه رغم استمرار التوظيفات الرأسمالية الاجنبية التي هي المظهر البارز لحقيقة الاستعمار الجديد ، نلاحظ استمرار التخلف الاقتصادي والاجتماعي والتكنولوجي في البلدان التي تجري فيها هذه التوظيفات بصورة متكاثرة . ويبرز هذا التخلف في قطاع الصناعة بالاخص . كما نرى ذلك في مثل بلدنا لبنان . ذلك لان هذه التوظيفات تجري في قطاعات غير منتجة ، بل هي تجند مختلف الممكنات الدائبة للابتعاد عن القطاعات المنتجة .

والخلاصة :

ان « الاستعمار الجديد » ليس هو سوى تجديد لاساليب الهيمنة الاستعمارية بحيث تتلاءم مع طبيعة الظروف التاريخية الجديدة من اجل احتفاظ الرأسمالية الاحتكارية بسيطرتها على اسواق التصريف ، والمواد الاولية ، ومناطق توظيف الرساميل في البلدان غير المتطورة لنهب ثرواتها .. وفي سبيل ذلك يعمل الاستعمار الجديد لكبح عوامل التطور في هذه البلدان ، ولخنق مطامح شعوبها الى التقدم .

التنين ذو المئة رأس !

نستخلص مما تقدم انه ما دام الاستعمار هو الاستعمار ، ولا فرق بين قديمه وجديده ، لا بد ـ اذن ـ ان تكون القواعد الفكرية والايديولوجية التي اعتمدها الاستعمار القديم هي نفسها القواعد الفكرية والايديولوجية التي يعتمدها الاستعمار الجديد .. بل ، ان الاستعمار الجديد محتاج الى ان يضيف اليها قواعد فكرية وايديولوجية جديدة ايضا ، لانه يعمل في ظروف يتعاظم فيها دور النشاط الفكري واثره في دفع حركة التطور التاريخي الى امام او شدها الى وراء .

من هنا نلحظ ان الاستعمار الجديد عظيم الحرص جدا على ان يقرن كل نشاط له سياسي او اقتصادي او اجتماعي او عسكري ، بنشاط في مستواه تماما ، كميا ونوعيا ، في المجالات الفكرية والثقافية . ونحسب ان هذا الواقع بعينه هو الذي قصدت اليه صحيفة الـ« غانيان تايمس » حين وصفت الاستعمار الجديد بأنه « تنين ذو مئة رأس » وقد يكون رأسه « الفكري » او « الايديولوجي » اخطر رؤوسه كلها ، لانه يفعل فعل السرطان في الخفاء دون ان يكتشف اصله ومصدره وكنهه اكثر الاحيان ..

الاوجه السياسية ذات الاقنعة الفكرية :

ولكن ، هناك رؤوس تبدو منفصلة تماما عن جسد التنين ، فلا تثير ريبة بامرها ، حتى لتستطيع ان تفعل فعل التنين ذاته دون ان يعرف احد من اين اتى ، وكيف ؟ ..

هناك فئات او هيئات او مؤسسات ذات وجه سياسي حقيقي يعبئها الاستعمار الجديد في صفوفه الخفية ، ويقنعها بوجوه ثقافية مستعارة هي من دقة الصنع بحيث لا تدع مجالا للشك بانها حقيقية طبيعية ..

هذه الاوجه المقنعة موجودة بكثرة في صفوف الوسط الثقافي العربي على صعيده العام وصعدانه الاقليمية جميعا .. فهي تؤدي للاستعمار الجديد اجل الخدمات السياسية ، في حين تظهر للناس باوجه ثقافية خالصة تختفي وراءها الاوجه السياسية تضليلا وتمويها .. وهي بهذه الطريقة من التضليل والتمويه تعمل ، دائما ، لخلق جو

فكري خاص لاغراق الفكر التحريري والتقدمي حينا ولتشويهه حينا ، ونعمل كذلك لخلق ايديولوجية تعارض أيديولوجية الحركة التحررية والتقدمية او لخلق تيارات فكرية وفلسفية تشيع في صفوف الجماهير الشعبية أو جماهير المثقفين والمتعلمين أشكالا من الافكار أو الاوهام أو المشاعر التي توقظ النزعات الفردية ، او تدغدغ الغرائز البهيمية ، او تزين سلوك اللامبالاة والبوهيمية ، أو تنشر روح اليأس والتشاؤم او تذيع في الناس دعوة الهزؤ او التشكيك بجدوى كل حركة نضالية، بل بجدوى كل قيمة وطنية أو حضارية ، الى آخر ما هنالك من دعوات هدامة تلبس لباس الرأي أو التفكير او الفلسفة او المذهب الادبي او الفني ..

ولقد شهدنا بعد نكسة الخامس من حزيران الماضي ، في مواجهة العدوان الاسرائيلي ـ الامبريالي صنوفا من هذه « التوجيهات » ذات الوجه الفكري في الظاهر ، وهي ـ في الواقع ـ توجيهات سياسية مجهزة تجهيزا دقيقا محكما لتثير في الناس الرعب والهلع ، او لتشيع حالات الانهيار النفسي والانهزامية وروح الاستسلام ، او لتغلق امام الانسان العربي كل منفذ يتنسم منه ريح الامل وكل افق يشرق عليه بالفكرة النيرة الهادية الى طريق النصر والخلاص من مهاوي النكسة .

وقد زادت التوجيهات « الفكرية » مكرها وعبثها بالانسان العربي، حين طفقت تدس الى عقله ووجدانه افاعي الشك والتشكيك بجدوى تلك الرابطة العضوية الطبيعية التي تجمع حركة التحرر العربية بسائر فصائل الحركة الثورية العالمية، ولا سيما منها بلدان العالم الاشتراكي، وظاهر ان الهدف من ذلك ليس هو محض الاساءة الى تلك القوى الصديقة والحليفة بقدر كونه الاساءة الى حركة التحرر العربية نفسها بمحاولة ابعادها وعزلها عن شركائها في المعركة المصيرية ـ الواحدة ضد قوى العدوان والاغتصاب . وما اسرائيل الا الجزء الذي لا ينفصل من هذه القوى العدوانية المغتصبة ..

ازاء هذا الواقع لا بد ان نتذكر تلك الواقعات الفاضحة التي كشفتها الصحافة الاميركية نفسها في العامين الاخيرين من علاقة وكالة الاستخبارات المركزية (الـ C.I.A.) بكثير من المنظمات الثقافية والطلابية والاجتماعية المنتشرة في بلدان القارتين الاسيوية والافريقية بالخصوص ، ومنها « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » كما يذكر الجميع ..

***

الاستعمار الجديد والفكر العربي :

من المعروف ان الاستعمار الجديد يتوسل الى تحقيق اهدافه بوسائل عدة ولكن اهمها واشدها خطرا محاولته قطع الطريق على كل سبب من اسباب تطور البلدان المتحررة . واذا نحن نقلنا الكلام في هذا الموضوع من نطاق العام الى نطاق الخاص رأينا « التنين » نفسه يدخل رؤوسه كلها دون استثناء في كل شأن من شؤون حياتنا العربية بمختلف اقطارها وديارها . غير ان رأسه « الفكري » اقدرها جميعا على اخفاء وجوده برغم ان وجوده يملأ الف زاوية في كل جانب من حياتنا القومية : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والادبية ، والفنية ، والعلمية الخ...

واذا تتبعنا ميادين النشاط الفكري للاستعمار الجديد في المنطقة العربية ، وقعنا على آثار صارخة ومذهلة لهذا النشاط في مجالات الحركة الثقافية العربية بمختلف قطاعاتها . ذلك بادراكه ان هذه الحركة اصبحت ، منذ نهاية الاربعينات بعد نكبة فلسطين ، ذات مجار تصل بين الفكر العربي ومشكلات الحياة العربية وقضاياها المصيرية الكبرى ومع تطور الاحداث المتصلة بهذه المشكلات وهذه القضايا ، تطورت تلك المجاري نفسها من حيث سرعة ايصالها حركة الحياة العربية بحركة الفكر العربي ، ومن حيث تعمقها لمعنى الصلة بين هذه الحركة وتلك ..

انطلاقا من هذا الادراك يشغل الاستعمار الجديد جانبا كبيرا من همه في تدبير مختلف الوسائل لمنع الفكر العربي من الانطلاق في مسيرة التطور نحو الوجهة التي تقتضيها حركة الحياة العربية في ظروف الثورة القائمة الان ... فالاستعمار الجديد اول من يعلم ان تطور الفكر العربي بهذا الاتجاه يتعارض ، بل يتناقض مع مصالح الامبريالية واستراتيجيتها العامة في المنطقة العربية كلها ..

وفي اعتقادنا ان من مصادر هذا التعارض أو التناقض كون الفكر العربي حين يمضي في تطوره بتوجيه تقدمي سليم معبر ، بصدق، عن المضمون الحقيقي لحركة التحرر العربية ، لا بد ان يمضي هكذا وهو يحمل ميزتين اساسيتين : اولاهما ، انطلاقه من قيم التراث الثقافي العربي .. والثانية انطلاقه نحو خدمة التطور القومي العام الشامل الذي يعني ـ اول ما يعني ـ خروج المنطقة العربية من اطار العلاقات الاقتصادية والاجتماعية الرأسمالية نهائيا ..

الموقف من التراث الماضي العربي :

على أن مسألة الانطلاق من قيم التراث الثقافي العربي يبدو ان للاستعمار الجديد تجاهها موقفا خاصا ظاهر الحساسية .. يدل على ذلك ما نراه من محاولات غاية في الخفاء حينا وغاية في الوضوح حينا، لايجاد القطيعة بين حركة النشاط الثقافي للاجيال العربية المعاصرة وبين الجذور التراثية لهذه الحركة .

لقد أشرنا ، منذ سطور ، الى ان انطلاق الفكر العربي في تطوره الجديد من قيم التراث القديم يحمل بذور التعارض او التناقض مع استراتيجية الاستعمار الجديد .. فماذا نعني بهذا الكلام ؟ ..

اول ما نعنيه ان النظرة التقدمية العلمية الصحيحة للتراث الثقافي القومي ، هي بطبيعتها مخالفة ـ اولا ـ كل المخالفة لنظرة الرفض لهذا التراث ، والتشكيك به وبقيمه الانسانية .. وهي ـ ثانيا ـ نظرة تقوم على الاقتناع العلمي بان هذا التراث يحتوي في خلاياه الحية واعماقه قيما انسانية تقدمية . ولذلك تدعو هذه النظرة وتعمل لاكتشاف هذه القيم ووضعها في متناول حركة التطور القومي العام الشامل للاستفادة منها في جعل الحاضر القومي المتطور امتدادا لقوى الحياة النامية الكامنة في الماضي ، وتطويرا لها ، واستمرارا للمثل الانسانية القائمة في مدلولاتها ، خدمة لبناء المستقبل الافضل .

وفي تراثنا الثقافي العربي وفر عظيم متنوع من القيم الانسانية، قادر ان يقدم لاجيالنا المعاصرة افضل العون لبناء ثقافة عربية تقدمية تجمع بين تحضير هذا التراث العظيم للانسجام مع روح المعاصرة من جهة ، وبين جعل هذا التراث نفسه ، من جهة ثانية ، حافزا قويا من حوافز الخلق والتجديد لتطوير انساننا العربي في وجهة طموحه التحرري الثوري ، دون ان ينقطع عن جذوره الكيانية .

من هنا يصبح مفهوما لماذا يقف الاستعمار الجديد موقف الحذر ، بل القلق ، بل العداء تجاه كل دعوة لاحياء التراث الثقافي العربي ، وكل دعوة لربط حركة الاحياء هذه بحركة التطور القومي الشامل .. ومن هنا يصبح مفهوما كذلك ماذا عنينا بمسألة التعارض او التناقض بين تطور الفكر العربي باتجاهه التقدمي وبين استراتيجية الاستعمار الجديد .

وفي تاريخنا الحديث شاهد على صحة هذه المقولة .. فكلنا يعلم ان النهضة العربية الاستقلالية الحديثة قامت ، في البدء ، على ايدي فريق كبير من المثقفين العرب ـ ومنهم اللبنانيون الرواد ـ الذين عملوا ـ في وقت واحد لاحياء التراث الثقافي العربي ، ولبعث الروح الاستقلالية وروح النضال في سبيل التغيير الاجتماعي والسياسي . وبذلك لعب التراث الثقافي دوره الايجابي حتى في مجال العمل السياسي التحرري .

هذه الحقيقة الباهرة ربما كانت في اصل الدوافع التي دفعت المؤسسات الاستعمارية المختلفة ، بين الحربين العالميتين ، وبعد الحرب العالمية الثانية بالاخص ، اي خلق تيارات فكرية ظاهرا، سياسية حقيقة ومضمونا ، متأثرة بالاتجاهات الايديولوجية الغربية ذات النزعات « النهلستية » . وقد رأينا هذه التيارات عندنا تجاهر برفض التراث

الفكري العربي وتنكر كل ما يحتويه من قيم انسانية رفيعة .. ولكن المثقفين والادباء العرب الوطنيين والتقدميين ، على ضعف وسائلهم المادية تجاه وسائل الاخرين الموفورة لهم من قبل المؤسسات الاستعمارية والرجعية المحلية ، استطاعوا ان يقفوا بوجه تلك التيارات الغريبة عن الجذور الانسانية للفكر العربي ، واقاموا تيارات معاكسة لتلك ، ومرتبطة بحركة التحرر العربية وبمضمونها التقدمي ، وهم يدعون لجعل عملية الابداع الثقافي الجديد متصلة بمنابع التراث نفسه .

وفي المرحلة الحاضرة يتجلى الصراع قويا بين هذه التيارات وتلك وخلل هذا الصراع يبدو جليا أن الاديب العربي مدرك ، الى حد بعيد ، ان مكافحة الاستعمار الجديد تؤلف جزءا هاما من رسالته الوطنية والقومية ذات المهمات النضالية . انه يدخل حلبة هذا الصراع بمستويات متفاوتة دون شك ولكن المهم في الامر أن حضوره الحلبة حقيقة لا شك فيها كذلك ..

اما غلبة التيارات الثقافية التحررية والتقدمية فهي تتوقف على التبدل الاساسي في ميزان القوى بين ممثلي الاستعمار الجديد والرجعية المحلية المرتبطة به ، وبين قوى التحرر والتقدم في هذا البلد العربي وذاك اولا ، وفي المنطقة العربية بجملتها ثانيا ، بقدر ما تتوقف كذلك على وحدة العمل النضالي بين قوى التحرر والتقدم نفسها ..

القواعد الفكرية للاستعمار الجديد :

يمكن القول أن الاستعمار بوجه عام ، والاستعمار الجديد بوجه خاص ، يكاد يكون اشد تيقظا للدور الفكري في مجالات نشاطه التخريبي المعادي لقضية الحرية والتقدم . فهو ـ لذلك ـ يبذل اقصى الجهد في مراقبة سير التطور في البلدان المتحررة ، لخلق التيارات الفكرية التي تستطيع ان تعرقل سيره ، أو أن تحرفه عن نهجه التحرري .

من هنا تنبثق اهمية رسالة الاديب العربي في مكافحة الاستعمار الجديد ـ أي مكافحة مثل هذه التيارات التي يخلقها في بلداننا ، وهي ـ في الاصل ـ قائمة على القواعد الفكرية الاصلية للاستعمار.. نعني بها تلك القواعد التي ينطلق منها الفكر الاستعماري لتضليل الشعوب عن حقيقة اهدافه هو اولا ، وعن حقائق التطور التقدمي الفكري والاقتصادي والاجتماعي ثانيا ..

اننا بنظرة علمية لحركة التطور التاريخي ينبغي أن نرى ـ بوضوح ـ دور الافكار في التأثير على مسيرة التطور هذا بالقدر نفسه الذي نرى فيه دور حركة التطور نفسها في التأثير على اتجاهات الافكار .. وبهذه النظرة لا بد أن نرى ـ كذلك ـ ان مكافحة الاستعمار الجديد في المجالات الفكرية ينبغي أن تتوازن مع سائر أشكال الكفاح السياسي والجماهيري الشعبي. وهذه الرؤية الصحيحة تقتضينا النظر بجد ـ الى واقع مجتمعنا العربي ، واللبناني منه بخاصة ـ والى الافكار التي تنعكس على هذا الواقع من جوانبه السلبية والايجابية معا ، والى الدور الذي تؤديه هذه الافكار أو تلك في دفع المسيرة التقدمية لشعبنا الى أمام او في كبح هذه المسيرة وتأخيرها .

أن الاخذ بهذه الخطة في مكافحة الاستعمار الجديد على الصعيد الفكري ، يستوجب منا ـ نحن الادباء العرب ـ كشف الاستار عن القواعد الفكرية التي يرسي عليها الاستعمار ، قديمه وجديده ، اهم دعائم وجوده وادهى اشكال حضوره في مجالات النشاط الثقافي عندنا .. ونحن نقدم في هذا البحث محاولة متواضعة للاسهام في الكشف عن بعض تلك القواعد الفكرية التي اقامها الاستعمار والاستعمار الجديد في مجاري حياتنا العربية منذ زمن طويل ، وهو دائب في تجديدها و « تطويرها » باستمرار .. ومحاولتنا هذه ترمي الى الكشف ، كذلك عن الاساس الفلسفي الذي تقوم عليه هذه القواعد بما تتضمنه من ايديولوجيات ونظريات في الادب والفن والفلسفة والعلم الخ..

مسألة « الفن للفن » :

كانت نظرية « الفن للفن » هي القاعدة الرئيسية التي تعتمدها المؤسسات الفكرية المناهضة لقضية التحرر والتقدم في بلادنا . كانت هذه قاعدة انطلاق في اغراء اهل الادب والفن بالعزلة الفكرية والنفسية والوجدانية عن حركة الحياة العربية المزدحمة بالاحداث المثيرة والمشكلات العسيرة والقضايا المصيرية .. وكانت وسيلة الاغراء بهذه العزلة هي تصوير الادب او الفن المنفتح على حركة المجتمع العربي بانه ادب « ملتزم » .. وتصوير « الالتزام » بانه قيد يكبل الفكر المبدع ويحول بينه وبين عملية الخلق الحر .. وتصوير كل نتاج ادبي او فني للادباء او الفنانين الوطنيين والتقدميين بانه ادب أو فن « حزبي » .. او انه ادب « شعارات » او فن « شعارات » حزبية مجهزة سلفا ومفروضة فرضا على الاديب او الفنان ! ..

كان ذلك في مرحلة سابقة استطاعت الاوساط الفكرية للاستعمار الجديد أن تمدها الى نحو أواسط الخمسينات .. ولكن اشتداد عنف الاحداث العربية ، وتعاظم حركة التحرر الوطني في القارتين الاسيوية والافريقية ، وفي البلدان العربية بالخصوص ، وظفر هذه الحركة بعدة انتصارات تاريخية حاسمة زادت في انحسار نظام الحكم الاستعماري عن بلدان القارتين وبلداننا ، وتحقيق الثورة العربية بعض اهدافها في مصر والعراق والجزائر وسورية واليمن ، وما احاط بهذه الثورة من اشكال الصراع الذاتي والخارجي ، بالاضافة الى النكبة ، التي كان الفكر العربي قد ترنح تحت وطأتها منذ حدثت في فلسطين عام ١٩٤٨ ـ هذه الاحداث والظروف العنيفة المثيرة لم يكن باستطاعة نظرية « الفن للفن » أن تحجز بينها وبين الفكر العربي كله ، ولا ان تمنع عنه تأثيراتها التي تسربت الى كثير من مفاهيمه السابقة فزعزعتها، حتى انكشف للذين خدعتهم ـ من قبل ـ حكاية « الفن للفن » انها حكاية مفتعلة لا سند لها سوى الوهم الخادع ، وان ادبا او فنا او فكرا لا يتأثر بمثل تلك الاحداث والظروف التي عاناها الشعب العربي ولا يعبر عن انفعاله بها مهما يكن نوع التأثر واسلوب التعبير ، انما هو ادب أو فن أو فكر يفتقر الى دم الحياة بأقل تقدير ..

ثم جاء عامل آخر احدث صدوعا جديدة في جدار « القاعدة » الايديولوجية : « الفن للفن » وابطل حجة اهلها في التشنيع على ما كانوا يسمونه « الالتزام » في الادب والفن .. فقد رافقت الاحداث والظروف العربية السابقة الذكر موجة ادبية صاعدة في محيط الفكر العربي التحرري نفسه أي محيط الادب « الالتزامي » بالذات .. هذه الموجة حملت الى الشعر العربي بخصوصه ثورة ما لبثت ان هدرت في قلب الحركة الشعرية العربية المعاصرة حتى انبثقت عنها حقيقة باهرة .. هي أن رواد هذه الثورة ، ثورة الشعر العربي الحديث ، واظهرهم ابداعا ، هم من أولئك الادباء « الملتزمين » الذين تنبض وجداناتهم بقضية الانسان العربي ، قضية تحرره وتقدمه وشرف مصيره ليسوا من أولئك الاخرين القابعين في شرنقة « الفن للفن » ..

تلك العوامل كلها قد تضافرت على دك القاعدة الايديولوجية، التي طالما استخدمها الاستعمار الجديد لتفكيك صفوف الادباء العرب ولحرمان الحركة التحررية العربية الكثير من المواهب الادبية والفنية التي خدعتها اسطورة « الفن للفن » ، فانصرفت هذه المواهب عن معركة المصير من حيث لا تدري أن الاستعمار الجديد وحده المستفيد من ذلك ..

بدأت تنهار قاعدة « الفن للفن » منذ اواسط الخمسينات ثم رأينا كيف اخذت تتوارى حتى انقاضها في السنوات الاخيرة من هذه الستينات ، ولم يبق من يذكر هذه « القاعدة » غير ساخر بها .. بل اصبح حتى اكثر انصارها القدامى حماسة لها هم الاكثر عنفا في التنكر لها والسخر بها وتجريحها اليوم ! ..

ولكن الاستعمار الجديد اذ فقد ـ بذلك ـ قاعدة هامة من قواعد ايديولوجيته في مجال الادب والفن في بلادنا ، صار عليه ان ينقل ساحة المعركة ضد الفكر التحرري العربي الى قاعدة جديدة بل قواعد جديدة .

الادب بين القومية والعالمية :

منذ انتهت ، عندنا ، اسطورة « الفن للفن » طفقت تزحف الى ارضنا الفكرية « اساطير » عدة من انواع اخرى .. وما كنا نجهل ، قبل هذا ، طبيعة الجدل القديم في مسألة القيم الفنية التي ترفع العمل الادبي العظيم لكاتب معين في وطن معين الى مستوى الادب العالمي .. ولكن الذي كنا نجهله ان تستخدم الايديولوجيات الرجعية الاستعمارية هذه المسألة في محاولة هدامة تقصد الى فصم العلاقة الانسانية بين عملية الخلق الادبي وبين الارض التي تستمد منها هذه العملية طاقة الخلق ومادته وعناصره الوجدانية والفنية معا .. كانت المحاولة اشاعة القول في اوساط ادبائنا بأن العمل الادبي لكي يكون في المستوى العالمي ، يجب ان يتخطى الوطنية او القومية ... ان يترفع عن معالجة القضايا اللصيقة بوطن معين وارض معينة وبانسان خاص يعيش في هذا الوطن ويرتبط بشؤون هذه الارض..ذلك لينصرف العمل الادبي لمعالجة المعاني الانسانية الرفيعة غير المرتهنة بمكان خاص ولا بزمان خاص ، بل المعاني الانسانية المتخطية حدود الزمن والمكان.. فهذا هو قوام العالمية .. والعالمية بهذا المعنى هي قوام الخلود الادبي.

ما الذي ترمي اليه هذه المحاولة الجديدة ؟ ..

المسألة واضحة .. انها ترمي ان تحل محل القاعدة المنهارة : « الفن للفن » . فكلتاهما تنتهي بالادب والفن الى الانقطاع عن مجتمعهما : الوطن ، والشعب .. الى العزلة التامة حتى عن قضايا الانسان العربي ومشكلاته المصيرية الكبرى ..

ولكن ، من الذين استجابوا لدعوة هذه المحاولة ؟

استجاب لها فريقان من الادباء العرب : احدهما ، فريق الذين تعيش اذهانهم في دنيا المكتب وحدها ، وتعيش وجداناتهم في عالمهم الداخلي المغلق دون حياة المجتمع ـ الوطن ، وهذا اقل الفريقين عددا .. وثانيهما ، فريق الذين يعرفون ويعون وعيا كاملا ماذا تعني هذه المحاولة ، وهم مستعدون ـ بحكم ارتباطاتهم الايديولوجية والمصلحية ـ ان يؤدوا المهمة التي يرمي اليها الاستعمار الجديد نفسه من اشاعة المكيدة التي تنطوي عليها الفكرة ..

وعلى الاديب العربي الذي يلتزم قضية التحرر العربية ، ان لا يستهين بهذا الفريق ، فهو من حيث عدده ومن حيث طاقاته وممكناته قادر على خدع المواطنين .. انه يملك من الوسائل المادية ومنها وسائل النشر والاعلان والدعاوة ما تجعل ممكناته اكثر تأثيرا من ممكنات الادباء الوطنيين والتقدميين .. فان المؤسسات ذات الوجهين التي اشرنا اليها سابقا : الوجه السياسي الحقيقي ، والوجه « الثقافي » المستعار ، تبسط لهذا الفريق من هذه الممكنات ما يوسع مجال نشاطه.

والاديب العربي الذي يلتزم قضية التحرر العربية يستطيع ـ مع ذلك ـ ان يؤدي رسالته في مكافحة الاستعمار الجديد على هذا الصعيد بان يفضح المغالطة الصارخة التي تقوم عليها فكرة الادب الانساني المنقطع عن جذوره الوطنية او القومية ..

والمغالطة هذه يفضحها منطق الحياة والعلم معا .. ذلك بأن انسانية العمل الادبي لا تقوم بالمجرد ، فليست للانسانية معانيها المطلقة، وانما تنبثق معانيها الرفيعة من الانسان ذاته ، اي الانسان الذي يعيش على هذه الارض بلحمه ودمه ، بفكره ووجدانه ، بنبضات قلبه وحرارة احساسه ، بابعاد وجوده وكينونته .. وهذه الاشياء كلها لا وجود لها الا حيث يتجذر هذا الانسان في تربة تأريخية ، التي تتجسد بعلاقاته مع الارض المعينة والمجتمع المعين ، في اطار الزمن والمكان : في الان ذاته .. وكلما كان العمل الادبي اكثر اتصالا بهذه الجذور كان اعمق انسانية ، واكثر امتلاء بعناصر البقاء ..

ـ التتمة على الصفحة ٩٤ ـ

المشعل المغوار

« من فدائي في قوات العاصفة »

تكسر في دمي ، مثل الزجاج ، بكاك يا أمي
وضيعت الدموع دروبها في وجنة المشتاق ،
واختنقت على شفتي أشياء
وتاقت زفرتي للنار

***

أقول : تفتحت كل المقابر زهرة استشهاد
أقول ، العالم المسعور ،
ينشب في ظلامهم حراب النور
وان المشعل المغوار
يبدد للسبايا جهمة الاصفاد
أقول ... أقول ، أشهق ، من حيائي ، في تقاويلي
وأخجل أن أمس رداءك المحروق يا أمي
فاني في تهاويلي
حملت المشعل المغوار ،
ذدت بوهمي المهزوز ،
عنك وصافحتني النار
لأن المدفع الرشاش ، فوق الكتف ، من طين
وان يبارق الأقدام مبهوره
على وهج الكلام تظل تغريني
وتكبح صولتي ... أستلهم الصوره :
(غدا ... أجتاز طود النار ،
أزرع في فناء الدار زيتوني
غدا ...) وتكدست أضلاع موتانا بباب العار
وهذي الوجنة الخجلى شوتها الريح
فأخجل أن أمسّ اهابك المخروق ،
أخجل أن أبثك لوعة التبريح

***

نسيت ملاعبي ... والدار
نسيت الحب ، والاشواق ، والتذكار
نسيت الموت ، والشهداء ، والاسماء
فوجهي الخوذة السوداء
وصدري المشعل المغوار
أهز الموت ... أرعب كل من ألقاه ،
فعيني حربة عطشى
وكفي حية رقطاء
وضيعت الدموع دروبها في وجنة المشتاق
وغامت زفرتي بالنار ...

بغداد — **تركي الحميري**

رسالة الاديب العربي في مكافحة الاستعمار
ـ تتمة المنشور على الصفحة ٥٣ ـ

★ ★ ★

الفلسفة البرغماتية :

.. وللاستعمار ، والاستعمار الجديد بخاصة ، من طاقة المكر والدهاء واليقظة ما يتصيد به ادق الاساليب لاستخدام المفاهيم الفلسفية ذات المحتوى الرجعي الذي يتناقض كل التناقض مع مطامح الشعوب النامية المتطلعة الى التطور والتقدم .. فهو ـ مثلا ـ يعمل جاهدا لنشر المفهوم الاساسي الذي يحدد الطابع المميز للفلسفة الذرائعية « البرغماتيزم » ..

ان هذه الفلسفة رغم انتسابها الى زمن يسبق زمننا ، وليست هي من خلق الاستعمار الجديد ، تمثل ـ مع ذلك ـ احدى القواعد الفكرية التي ينطلق منها في عملية التضليل الكبرى للشعوب المناضلة من اجل تطورها المستقل .. ذلك بأن الفلسفة الذرائعية تنطوي بجملتها على موقف معين من الحقيقة . فهي لا تقول بالحقيقة الموضوعية ، وانما هي تقيس وجود الحقيقة وقيمتها بمقياس المنفعة وحدها ، فحيث كانت المنفعة كانت الحقيقة ، وحيث لا تكون تلك لا تكون هذه .. ومقياس المنفعة ذاتها واسع مرن جدا لا ينحصر في منفعة المجتمع ، بل يشمل مصلحة الفرد بوصفه فردا مستقلا عن الجماعة . وحين يكون الامر كذلك تتميع القيم الاجتماعية والخلقية والحضارية وتسود المجتمع الاخذ بهذه الفلسفة انحلالية رهيبة تستسيغ كل سلوك مؤذ للجماعة.

ان انكار الحقيقة الموضوعية المستقلة بوجودها عن الذهن البشري ، يعني في الوقت نفسه ، انكار وجود القوانين الطبيعية والاجتماعية . وهذا يؤدي الى نفي امكان تنظيم المعرفة العلمية الكاشفة لتلك القوانين من أجل تحقيق الحرية الاجتماعية ، وهي الحرية التي لا تتحقق الا بمعرفة قوانين الضرورة والسيطرة عليها .. وكل ذلك يؤدي حتما الى نفي امكان معرفة المصادر الحقيقية للازمات والمشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، لمعرفة كيفية استئصال هذه المصادر وحل تلك المشكلات ذاتها أخيرا .. وتنتهي مع تسلسل النتائج الناشئة عن انكار الحقيقة الموضوعية الى انكار مبدأ السببية ، ثم تنتهي من ذلك ـ بعد ـ الى نفي امكان تغيير الحياة الاجتماعية وازالة الانظمة المختلفة التي تسبب شقاء الجماهير الواسعة ، لانها تنفي قدرة العلم على التحكم بهذه الانظمة ، بقدر ما تنفي امكان الاخذ باية نظرية علمية شمولية الرؤية تعكس التطلعات الثورية ، لتغيير صورة المجتمع تغييرا يكون في مصلحة جماهير الشعب ..

وهذه القاعدة « الايديولوجية » ينبغي ان تدخل ايضا في رسالة الاديب العربي في مكافحة الاستعمار الجديد ، وفي سبيل دك قواعده الفكرية التي تدعم وجوده في مجتمعنا من حيث لا يشعر الناس بهذا الدعم الذي يكاد يكون مباشرا ..

حرية الفرد
وحرية المجتمع :

.. ويعتمد الاستعمار الجديد في ما يعتمد من قواعده الفكرية قضية الحرية :

فقد رأينا بين تيارات المذاهب الفكرية والادبية الشائعة في بلادنا ما يضفي على قضية الحرية طابعا خاصا يبعدها عن مضمون قضيتنا الوطنية والقومية التحررية .. نعني المضمون الاجتماعي للحرية ، أي حرية مجتمعنا العربي التي تشمل الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وهذه تعني ـ في آخر الامر ـ تحرير الفرد نفسه من الاستثمار الاستعماري والاستثمار الطبقي الرأسمالي والاقطاعي ..

ان الاستعمار الجديد يحاول ، بواسطة أعوانه وعملائه وبوساطة المنظمات والصحف والمؤسسات ذات القناع « الثقافي » الناشطة في بعض الاقطار العربية ، وفي لبنان بالاخص ـ يحاول أن يدفع تلك التيارات الى وضع حرية الفرد بذاتها ، منفصلة عن حرية المجتمع موضع الجدل ـ الدائم والدائب ـ مدخلا في روع المثقفين والمتعلمين ولا سيما الادباء والفنانون منهم ان حرية الفرد هذه هي المفهوم الحق للحرية ، وانها الطرف النقيض لحرية الجماعة ، وانه لا يمكن أن تتلاقى هذه وتلك أي انه لا يمكن أن يحقق الفرد حريته الا منمردا على حرية المجتمع ، وانه لا يمكن ان تتحقق للمجتمع حريته الا على حساب حرية الفرد .

وفي سبيل الترويج لهذا المفهوم المثالي الرجعي المشوه للحرية قامت « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » على الصعيد العالمي ، ثم أنشأت فرعا لها في لبنان . وأنشأ هذا الفرع مجلة « حوار » على غرار المجلات الاخر التي تصدرها هذه المنظمة في عواصم الغرب ، وقد ثبت أخيرا حتى لرئيس تحرير مجلة « حوار » نفسه أن الممول الرئيسي للمنظمة ومجلاتها هو وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية الـ C.I.A.

فلماذا تغدق هذه الوكالة الاموال الطائلة وتبذل الجهد الفائق لانشاء « حوار » في لبنان ، ولنشرها على نطاق واسع جدا في سائر البلدان العربية ؟.. فهل ـ تراها ـ تفعل ذلك لاغناء ثقافتنا العربية ؟ أم لتعليمنا كيف نحقق « الحرية » لشعبنا وأمتنا ؟ أم لتحفز مواهب الادباء والمثقفين العرب الى الخلق والابداع من أجل الخلق والابداع ؟ أم لتهيىء بابا للرزق أمام كتابنا وشعرائنا ومفكرينا ؟..

لقد حارب الكتاب الوطنيون والتقدميون عندنا قيام هذه المجلة أو المنظمة التي وراءها في لبنان ، من حيث كونها وسيلة ثقافية لاشاعة مفاهيم الاستعمار الجديد الفكرية ، وكشفوا ـ بالوثائق الصريحة ـ حقيقة الاهداف التي ترمي اليها ، وذلك قبل أن تنكشف علاقتها بوكالة الـ C.I.A.

ولسنا هنا نستند الى تلك الوثائق ، ولا الى ما انكشف من علاقة المنظمة ومجلاتها بعد ذلك بالدائرة الاستخبارية الاميركية وحسب ، بل الذي يعنينا اكثر من كل هذا ان نستند الى سيرة « حوار » نفسها طوال الزمن الذي استمرت تصدر فيه ببيروت وتوزع في مختلف الاسواق العربية .. كانت ، في سيرتها هذه ، تحاول اخفاء هويتها الحقيقية بنشر موضوعات أدبية أو فكرية بريئة من كل ما يثير التشكيك بها ، وتستكتب نفرا من أعلام الفكر والادب في البلاد العربية الذين لا تحوم عليهم اطلاقا هواجس الريبة ، بل كانت ـ الى ذلك ـ تعمد الى اختيار بعض الاسماء الادبية والفكرية التي انطبعت عنها في أذهان الجمهرة القارئة سمات الوطنية أو التقدمية ..

ولكن « حوار » كانت ـ في الوقت نفسه ـ تدس بين كل ذلك وسائل الترويج للافكار والمفاهيم الداعية للاستهانة بالتراث الثقافي القومي ، ولا سيما التراث العربي ، والترويج للفلسفات ذات النزعات الفردية ، ومنها فلسفة الحرية ذاتها .. فقد كانت « تنزوي » في أخريات كل عدد منها زاوية بعنوان « آفاق الحرية » تحمل الى قرائها ، بأسلوب مشوق ممتع ، الاغراء بفهم الحرية للفرد وحده بصفته الفردية ، وترى حرية المجتمع ، دائما ، عدوانا محضا على حرية الفرد ما دام « المجتمع » الذي تعنيه مجلة « حوار » هو المجتمع الاشتراكي ، فاذا كان الحديث على المجتمع الرأسمالي رأينا العكس تماما .. رأينا حرية المجتمع هي الحق الاول والاوحد ، وحرية الفرد هي التي تستحق الاخناق والامتهان ..

لماذا نختص « حوار » بهذا القدر من الحديث بعد أن طويت صفحتها ، لافتضاح « هويتها » الاستعمارية ؟..

نفعل ذلك لامرين : أولا ، من حيث أن « حوار » نموذج لاساليب الاستعمار الجديد في المجالات الفكرية والثقافية التي هي موضوع هذا البحث .. وثانيا ـ من حيث ان الاستعمار الجديد لن يفتقر الى الرغبة في تكرير هذا الاسلوب الذي مثلته « حوار » باشكال جديدة ،

ومتجددة باستمرار ، ولن يفتقر كذلك الى ناس يدافعون عن هـــذا الاسلوب بروح تبدو موضوعية ، أو بحجة « الموضوعية » أو بحجـــة حماية « الحرية » الفكرية أو حرية الحوار الفكري كما حدث فـــي مسألة « حوار » تماما !.. ولذلك نضع المسألة هنا ، أمام مؤتمـــر الادباء العرب بالذات ، على هذا النحو من الاسهاب والتوكيد ليكـون الادب العربي ، وهو يعتزم اداء رسالته القومية التحررية في مكافحـة الاستعمار الجديد ، على بينة من الطابع الدعاوي والايديولوجـــي الذي يعتمـده في معركته ضد حركـــة التحرر العربي في الميـادين الثقافيـــة ..

الاستعمار الجديد والمنهج العلمي :

ولا بد لنا ، في هذا البحث ، أن نكشف عن جانب خطير مـــن جوانب القاعدة الايديولوجية الاساسية التي تنهض عليها عمارة كاملة للفكر الاستعماري والرجعي في كل مكان ..

نحن نعلم أن مسألة التنمية الاقتصادية والتخطيط الاجتمـاعي الشامل ، هي المسألة الاولى والاهم من بين المسائل الموضوعة أمـــام الدول المتحررة ، أي البلدان التي تشملها الثورة التحررية العالميـة بكاملها (آسيا ، أفريقيا ، أميركا اللاتينية) .. ونحن نعلم ـ كذلك ـ أن قوام هذه المسألة وجوهرها الحقيقي هو العلم .. ونعني العـــلم التجريبي القائم على استخدام قوانين الطبيعة وقوانين تطور المجتمع البشري في سبيل تطوير حياة الشعـــوب ورفع مستواها المـــادي والروحي الى درجة تتعزز بها كرامة الانسان وتصان بها انسانيته من الاذلال والاستعباد والاستثمار .. ذلك يعني ـ قبل كل شيء ـ أن تدخل البلدان المتحررة هذه في نطاق البشرية الواثقة بقيمة العـــلم وقدرته على التحويل والتطوير ، وبدوره الاساسي في تطوير حياتهـا وتحقيق مطامحها التقدمية ..

ولكن الاستعمار الجديد ، وهو يدرك هذه المسألة بدقة ويقظة ، يحاول بذل كل ما يستطيع من جهد لابعاد هذه الثقة بالعلم عن شعوب البلدان النامية كلها ، ومنها بلادنا العربية .. انه يتوسل الى ذلك ـ طبعا ـ بوسائل عدة متنوعة تدخل كل مضمار ، وتتخذ أحيانا كثيرة في المجالات السياسية الاقتصادية أساليب الضغط المادي الماكر .. ولكن علينا ـ نحن الادباء العرب التحرريين والتقدميين ـ أن ننتبـه الى الخطر الادهى ، في هذه المسألة ، حين يأتي الاستعمار الجديد الى شعبنا بطريق الفكر والثقافة ، ولا سيما طريق الاعلام (السينما ، الاذاعة ، التلفزيون الخ ..) وطريق التعليم بمختلف مراحـله حتـى الجامعـي ..

انه يأتينا ، من هذا الطريق ، بوجـــه فلسفي خفي الملامح ، ليدس في أذهاننا بذور التشكيك بقيمة العلم ، وبقدرته على تغييـــر حياتنا وتحويل واقعنا المتخلف الى واقع متطور ، وليوقع ـ بذلك ـ في نفوسنا وعقولنا معا ان أوضاعنا المتهرئة التي نشقى بها ونضيق بها باقية راسخة لا شيء يستطيع أن يقتلعها من حيـــاة شعوبنا .. أي ليصل من ذلك الى دفع شعبنا للاستسلام الى أنظمته الرجعية التـي يكافح في سبيل تغييرها ، وللاستسلام الى ان النظام الرأسمالـــي العالمي الذي يدعم هذه الانظمة الرجعية نظام مقدر علـى البشريـــة الى الابـد ..

هناك وسيلتان يستخدمهما الاستعمار الجديد في المجال الثقافي ، العلمي والفلسفي معا : أولاهما ، نشر الافكار التي تظهر العلم ، لـدى ناشئتنا المتعلمة ومثقفينا وأهل الادب والفكر والجامعيين منا ، انـــه مجرد قواعد ونظريات منعزلة تماما عن الحياة الانسانية الاجتماعيـة ، مفرغة من القوانين العامة التي تصلها بحياة الجماعات وعلاقاتهـــا الانسانية الشاملة .. فهي ـ اذن ـ تنحصر في دائرة ضيقة خاصة ، هي دائرة النشاط الفردي المحض لاهل العلم .. وعلى هذا يدخل في تصورنا ان للعلم قضايا منفصلة عن قوانين الحركة الاجتماعية وهذه القضايا المنعزلة تختص بها أذهان أولئك الافراد المتازين القـادرين ـ بموهبة خاصة ـ على التصور النظري التجريدي .. وهنا نرجع الى ما قلناه ، سابقا ، عند الحديث عن فلسفة « البرغمانيزم » من انكار هذه الفلسفة للحقيقة الموضوعية . فان انكار الحقيقة الخارجيـــة الموضوعية المستقلة عن ادراك الذهن البشري وعن الارادة البشريـة ، هو من أهم المنطلقات الايديولوجية ، التي يعنى التفكير الاستعمـاري أعظم العناية بوضعها كالالغام في طريق المسيرة التحررية لشعبنـــا ولسائر شعوب « العالم الثالث » .

وبفسير ذلك يرجع الى العلاقة بين هذه المسألة وبين مفهـوم العلم والنتائج العملية التي تترتب على تحديد مفهوم معين للعـــلم ينطبق على فلسفة « البراغمانيزم » أو لا ينطبق .. فان انكار الحقيقه الموضوعية يؤدي الى أنكار كون العلم نتيجة انعكاس لهذه الحقيقة في الذهن البشري ، وهذا ـ بدوره ـ يعني انكار أن العلم حصيلة تجارب انسانية مع أشياء الحياة والطبيعة والمجتمع ، وأن هذه التجـارب خاضعة لقوانين موضوعية قائمة في حركة الطبيعة وحركة المجتمـع ، ولذلك تصلح هذه التجارب لان يستخلص الذهن البشري منها قوانين صالحة للتعليم لها صفة الموضوعية كـــذلك ، وهي ـ أي هـــذه القوانين ـ مؤهلة لان يستخدمها الانسان ، في مجال العمل والتطبيق، ليفهم في ضوئها حركة التاريخ ، وليحلل في هذا الضوء أوضـــاع المجتمع ، ما مضى منها وما يستجد ، ثم ليتخذ من فهمه وتحليـــله قاعدة فكـرية ينطلق منهـا الى أبعد مـن مرحلة التفسير هذه لحركة التاريخ والمجتمع .. ينطلق الى مرحلة التغيير ، أي تغيير الاوضـاع الاجتماعية في ضوء التفسير العلمي لهذه الاوضاع ، واخضاع حركة التغيير هذه لمصلحة تطور المجتمع وتقدمه ، على أن يكون ذلك فـــي سبيل رفع مستوى الحياة الانسانية ماديا وروحيا ، وعلى أن يشمل هذا المستوى اكثر فئات الشعب العريضة .

ان مفكري الاستعمار الجديد ، يجهدون في صياغة منهج فكـــري يرمي الى ابعاد مهمة العلم عن معـــرفة قوانين الطبيعة والمجتمـع الموضوعية القائمة خارج الذهن البشري .. وذلك لتوجيه عقولنا الى عدم التصديق والاعتقاد بامكان سيطرة العقل البشري ، بوساطـــة العلم ، على القوانين الطبيعية والاجتماعية .. لان المنهج الفكـــري الاستعماري يعلن عدم أقراره بوجود هذه القوانين بالفعل .. وهـذا يعني ـ بالنهاية ـ في امكان تنظيم المعرفة العلمية في سبيل تحقيـق الحرية الاجتماعية التي يستطيـــع المجتمع تحقيقها لافراده بالتصرف العقلاني بقوانين الضرورة (الحتمية) ، كما يعني ذلك نفي امـكان معرفة العوامل والاسباب الحقيقية للأزمات والمشكلات الاجتمـــاعية والاقتصادية في سبيل استئصال تلك العوامل والاسباب .. وأخيرا ، يعني ، في امكان تغيير الحياة الاجتماعية وتبديل الانظمة المختلفـة القائمة على ألوان الظلم الاجتماعي ..

أما الوسيلة الثانية من الوسيلتين اللتين يستخدمهما الاستعمار والاستعمار الجديد في المجال الثقافي لدفع شعبنا الى الاستســـلام للانظمة الرجعية والتحكم الاستعماري ، فهي ـ أولا ـ اشاعة أنـواع من القيم وأنواع من السلوك الذهني والنفسي تبعدنا اكثر فاكثر عـن الثقة بالعلم وبقدرته على التغيير الثوري الذي تنشده حركة التحرر العربية .. نذكر من تلك الانواع :

● التوماثية : فليس عبثا أن يعنى شارل مالك مثلا تلك العناية الفائقة ، منذ بدأ عهد أستاذيته في الجامعة الاميركية ببيروت ، بـأن يكون مبشرا مرموقا للمذهب التوماثي (توما الاكويني) .. ذلك لارتباط الايديولوجية التوماثية بقضية الموقف من العلم ، موقف العزوف عـن الثقة بالمعرفة المستفادة من قوانين العلم وقوانين الكون بحقيقتهـــا السببيـــة ..

● الارادة الفردية : وهذه مسألة تخدم الايديولوجية الاستعمارية بتصويرها لجماهير المثقفين والمتعلمين في بلادنا ان الارادة الفرديـة

عامل حاسم في تطور المجتمع وتغيير الاوضاع والانظمة وحل المشكلات والقضايا الوطنية والقومية المصيرية .. فان التوجيه الى هذه المسالة يدعو الى اعتماد النخبة المصطفاة من الافراد ذوي المواهب المتازة في ادارة حركة التاريخ ، وانكار دور الجماهير الشعبية اطلاقا في ارادة التطور والتحرر ..

اننا لا نقول بالغاء دور الفرد في ذلك ، ولكن نقول بانه ليس هو العامل الحاسم ، وانما العامل الحاسم ارادة الجماهير الشعبية الواعية المنظمة ولا سيما تلك التي تنشىء الاساس المادي والاقتصادي لتطور المجتمع .

● علم النفس الفردي : وهذه تلحق بالمسالة السابقة . فان علم النفس الحديث القائم على اساس ايديولوجي رأسمالي يبني تحليلاته لواقعات الحياة وحوادث التاريخ على ما ينتهي اليه من التحليل النفسي لسلوك الفرد وعلاقة هذا السلوك بتصرفاته الخارجية ..

وهنا نقول ايضا اننا لا ندعو الى نسخ علم النفس الفردي ، ولكن لا ننساق مع ايديولوجية الاستعمار الجديد التي تحاول توجيهنا الى ان نتخذ من التحليل النفسي للافراد قوانين مؤثرة تحكم القوانين الاجتماعية ، اي قوانين التطور الاجتماعي التي تثبت مسيرة التاريخ البشري حتى الان انها هي القوانين الفاعلة والحاسمة في هذا التطور .. ونحن ـ مع ذلك ـ لا نقول البتة بترك التطور هنا يفعل هذه القوانين الموضوعية بصورة عفوية ، بل لا بد من تدخل الارادة البشرية الواعية المنظمة المعبأة التي تعتمد فهم هذه القوانين وسيلتها الاولى .

الموقف تجاه الفلسفة :

ليس غريبا ان يكون للاستعمار الجديد موقف خاص تجاه الفلسفة بمفهومها العام . فان مفكري الاستعمار يدركون ، بوعي قوي ، ان للفلسفة ـ من حيث هي منهج في التفكير ـ اثرا توجيهيا له قدره لا في توجيه الافكار وحسب ، بل في توجيه السلوك الانساني كذلك ، فرديا وجماعيا ، سلبيا وايجابيا . ولذا يختارون لانفسهم موقفا تجاه الفلسفة ينسجم مع الايديولوجية الاستعمارية المعادية لتطور شعوب « العالم الثالث » ، وشعوب منظمة البترول العربي بالاخص .

انطلاقا من ذلك نرى دعاة الفكر الاستعماري يجهدون ، بمختلف الوسائل ، في اشاعة مفهوم للفلسفة مثالي خالص المثالية ، حيث تبدو الفلسفة في اذهان المثقفين عندنا وكانها مجموعة افكار تجريدية منقطعة كل الانقطاع عن الحياة والعلم وعن مشكلات الانسان والمجتمع وعن سائر القضايا التي تدخل في هموم الانسان المعاصر وفي تجاربه الواقعية ومعاناته اليومية .

ان مفكري الاستعمار الجديد يقصدون ان يقيموا بهذا المفهوم حاجزا بين تفكيرنا وبين المفهوم الاخر للفلسفة .. نعني المفهوم الذي يمنحنا النظرة الشمولية للكون والحياة والتاريخ ويزودنا بالمنهج الفكري الذي نرى به حيوية الصلة بين الفلسفة والعلم ، وبين الفلسفة والحياة ، وبين الفلسفة والقضايا الاجتماعية الواقعية ، ونرى به ان هذه الصلة هي من صلب الحقيقة الفلسفية ذاتها .

ان خطر هذا المفهوم الواقعي للفلسفة ، في نظر مفكري الاستعمار الجديد ، كونه يعطينا تلك النظرة الفلسفية الشمولية القائمة على نتائج الاختبارات الانسانية في حقول الحياة العامة وفي العلوم التجريبية ، واستخلاص القوانين العامة التي تصلح هاديا لنا في سبيل التحرر الاجتماعي ، والسيطرة على الحتميات الكونية بتحويلها لرفاهية مجتمعاتنا ماديا وروحيا ..

من هنا يقيم الاستعمار الجديد في بلداننا العربية مؤسسات ذات ستار ثقافي لاشاعة المفاهيم الفكرية والفلسفية التي تبعدنا عن التفكير المنهجي في حل مشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتخطيط العلمي الصحيح المؤدي الى الحلول السليمة لتلك المشكلات .

● تبرير الحروب العدوانية : في هذه الاونة الاخيرة نشهد حربين عدوانيتين : حرب اميركا في فيتنام ، وحرب اسرائيل ، بمعونة الامبريالية الاميركية ، في الشرق الاوسط . اننا نسمع دائما كيف تنطلق السنة الامبريالية والصهيونية في تبرير هاتين الحربين ، بالرغم من افتضاح الطابع العدواني الذي يلازمهما كيفما كانت الصورة التي يخرجها لهما دعاة فلسفة الحرب .

يبرر هؤلاء الدعاة حرب فيتنام بانها حماية لحرية « الجنوب الفيتنامي » من « العدوان » الشمالي .. وهنا تبرز مسالة «الحرية» ومفهومها الامبريالي الذي يعني « حرية » الاحتكارات الراسمالية في نهب الشعوب ومنعها حقها في حرية تقرير مصيرها بنفسها .

ويبرر « فلاسفة » الصهيونية والامبرياليون عدوان اسرائيل بانه دفاع عن النفس .. وهذا « الدفاع عن النفس » يعيد الى أذهاننا تلك الافكار التي كانت النازية تبرر بها عدوانها على الشعوب واشعالها نار الحرب العالمية الثانية ،بانها تدافع بذلك عن « حقها » في المجالات الحيوية التي كانت تسيطر عليها الدول الامبريالية الغربية الاخرى ..

ان قلب مفهوم الهجوم والعدوان الى مفهوم « الدفاع » ليس هو سوى نوع من الطريقة « الفكرية » التي تعمل بها الامبريالية العالمية ، والاميركية بالخصوص ، لخلق نازية مجددة تلبس هذا الثوب الجديد الذي اسمه اسرائيل .

خلاصة البحث :

هكذا نرى ، اخيرا ، ان الاستعمار الجديد رابض في طريقنا الثقافي والاقتصادي والسياسي ..ولذا كان على شعبنا العربي ثورته التحررية القائمة ، ان يكافح طويلا في جبهته الداخلية وفي الجبهة الثورية العالمية الشاملة ، حتى يقضي على هذا العدو الشرس لحرية الانسان وكرامة الانسان وتقدم الانسان ..

وعلى أدبنا العربي أن يسهم بهذا الكفاح ، ولو ضمن مجاله الفكري الذي رأيناه حافلا بالافاعي الفكرية الاستعمارية .

وختاما : الى مؤتمر ادباء العرب السادس تحية حارة مع الرجاء بان يوفق في أداء مهمته امام هذه الظروف العربية العصيبة ، وفي انارة الطريق لنا نحو مستقبل مضيء لامتنا وثقافتنا وادبنا المعاصر .

صدر حديثا

للشاعر عبد الوهاب البياتي

طبعة جديدة لواحد من اهم
دواوين الشعر العربي الحديث

منشورات دار الاداب ٢٠٠ ق.ل